العنوان ولعبة التأويل
في رواية «باب الشمس» لإلياس خوري[1]

نعيمة جدي❖ جامعة باجي مختار ❖ عنابة ❖ الجزائر

Email : naimadjeddi6@gmail.com

ملخص

تروم هذه الدراسة مقاربة عنوان رواية «باب الشمس» لإلياس خوري مقاربة سيميائية تأويلية، بالارتكاز على مقولات جرار جينيت G. Genette النظرية حول العتبات. وباستلهام أفكار بورس Preirce وأمبرتو إيكو U. Eco إجرائيا، وذلك بمحاولة فتح مسارات تأويلية متعدّدة بالانطلاق من البنية اللسانية والانفتاح على ممكنات التدليل، التي تنضاف إلى هذه البنية إذا رُبطت بما يُجاورها من عَتبات أخرى.

الكلمات المفاتيح: باب الشمس، العتبات، التأويل، السيميائيات.

Abstract

The present study sheds the light on Ilias Khouri's novel 'Beb El Chems' through a semiotic and interpretative approach based on Gerard Genette's theoretical quotations on the thresholds and inspired by the practical ideas of Pearce and Amberto Eco. The study opens up many interpretative perspectives on the title, starting from the linguistic structure and opening up on significant probabilities that can be linked to other thresholds.

Key Words: Beb El Chems – thresholds – Interpretation – semiology

---

[1]- إلياس خوري، ناقد وقاص وروائي، وكاتب مسرحي من لبنان، ولد في العاصمة بيروت سنة 1948، له مؤلفات نقدية كـ "زمن الاحتلال، والذاكرة المفقودة"، وأخرى روائية مثل "الجبل الصغير، وأبواب المدينة، والوجوه البيضاء، ومملكة الغرباء، وباب الشمس، ورائحة الصابون، ويا لو..."، ترجمت إلى عديد اللغات. وهو أستاذ جامعي درس بلبنان ونيويورك، وشغل عدة مناصب منها "منصب محرر الملحق الثقافي بجريدة النهار ببيروت".

تمهيد:

العنوان عتبة كل إبداع، قصة البداية التي تَنْبَثِق منها كل الدّوال التي تبني صروح المتون، وهو النهاية المقتصَدة، الجامعة شتات ما تفرّق في ثناياها، فالعنوان «مفتاح تقني يجس به السيميولوجي نبض النص، ويقيس به تجاعيده، ويستكشف ترسباته البنوية وتضاريسه التركيبية على المستويين الدلالي والرمزي»[2].

الاسم أوّل عنصر ثقافي يضاف إلى فطرة الإنسان يوازي وجوده في الحياة، ويعنون قبره بعد الموت، فهو علامة تكفل له التفرّد داخل الإطار الاجتماعي الثقافي الذي يعيش ضمنه؛ وعملا بذلك يختار المبدعون تسمية أعمالهم، فينتج العنوان الذي يوازي النص، ويعمل على تميّزه داخل الثقافة التي يتداول ضمنها، «فالعنوان باعتباره اسمًا للكتاب أهم محدّد ومُمَيِّز له عن هويات أخرى»[3]. وصياغته تشفير يَخْتزِل اتساع النص في نسق لساني قد لا يتعدّى الكلمة الواحدة، ليُحفِّز أذهان المتلقين على التّأويل، ومحاولة الانفتاح على كل الممكنات الدلالية التي يُتيحُها. ليفك المتن طلمسه ويضع نهاية لانفتاح الدلالات عبر المؤوّل النهائي؛ الذي يغلق ما انفتح من قراءات بنفوق مبرّرات التأويل المفتوح.

وهكذا يكون العنوان قد حقّق وظيفته التداولية باستنفار القارئ، وشحذ همته إلى الاطلاع على النص. على أنّ هذا لا يُقصي وظيفته الجمالية، التي يصنعها خرق أفق انتظار المتلقي بشكله اللّغوي؛ إذ أصبح العنوان –في أيامنا- نائيا عن المباشرة، ماكراً، مراوغاً، بعدوله عن مَألوف التركيب اللغوي، إلى الهجرة بالألفاظ إلى سياقات غريبة عنها تُحَملها – إضافة إلى معانيها المركزية- معاني هامشية تُجدّدها، وتطير بها إلى فضاءات دلالية أرحب، تتّسع فيها المسافة بين الدال والمدلول، فتخصب القراءة وتتعدّد، ويباح للمتلقي التدخل في بناء الدلالة.

1.عتبة العنوان والتأويل السيميائي:

تأخّر الحديث عن العتبات في الدراسات الغربية إلى ثمانينات القرن الماضي، ولم يكتب لها الاتضاح إلا على يدي جرار جينيت G. Genette الذي تفرّد بالدعوة إلى ضرورة

2- جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكرة، المجلد15، العدد،3، يناير-مارس، 1997، ص 96.

3- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية/ التشكيل ومسالك التأويل، دار الأمان، الرّباط، ط1، 2012، ص 18.

الانتباه إلى ما يوازي النصوص «كالعنوان والإهداء والرسومات التوضيحية وافتتاحية الفصول»[4]. وهي عناصر ترافق النص وتحيطه، ولعل أهمها على الإطلاق هو العنوان لأنه «يتوجه في الواقع إلى الجمهور بصفة عامة»[5]، وهذا يزيد من أهميته؛ لأن وظيفته في هذا المقام هي حيازة أكبر قدر من المتلقين بإثارة انتباههم ودفعهم إلى شراء المُنتج.

شكّل ليو هوك L. Hoc علامة فارقة في تاريخ دراسة «العنوان من منظور مفتوح تؤطره السيميائيات... منطلقا في تعريفه له باعتباره علامة لسانية تصور وتعين وتشير إلى المحتوى العام للنص»[6]، ولا يُستجلى هذا المحتوى إلا بانْتِهاج آلية سيميائية تأويلية تنزع إلى عدم الوقوف عند المعاني المباشرة التي يمنحها النسق اللساني للعنوان، وإنما تحاول أن تسافر به إلى سياقات ثقافية أبعد، تملها ثقافة المتلقي وقدرته على التحليل والرّبط بين ما يشير إليه العنوان وما يملكه من خبرات ومعلومات، ولا يكون ذلك الرّبط مقبولا إلاّ بوجود مبرِّرات، تجيز هذه التأويلات (القراءات).

أرست السيميائيات التأويلية قواعدها الإجرائية على يدي أمبرتو إيكو U. Eco في أوروبا بعد أن نظّر لها شارل سندرس بورس C. S. Peirce في أمريكا. وقد أبدى تطبيق إجراءاتها نتائج مثمرة في استنطاق النصوص اللسانية وغير اللسانية وكشف ما تخفي في ثناياها لأنها تعتمد على الانفتاح في تأويل العلامات، مما يؤدّي إلى فسح المجال أمام المتلقي ليملأ الفراغات التي تعجّ بها النصوص، فالعمل الفني في عرف إيكو «عبارة عن رسالة يكتنفها الغموض أصْلاً... ويمكن أن نفهم العمل الأدبي على أنه كثافة من المدلولات المتواجدة في دال واحد»[7].

وهذه خاصية العنوان الذي بين أيدينا، والذي ارتأنيا أن نقاربه من وجهة "سيميائية تأويلية" تأسيسا على أنه علامة نتمكن «من خلال التعرّف عليه أن نعرف شيئا

---

[4]- معجب العدواني، تشكيل المكان وظلال العتبات، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، نوفمبر2002، ص 7.

[5]- Gérard Genette, Seuils, Ed. Seuil, 1987, p 15.

[6]- شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص12.

[7]- وحيد بن بوعزيز، حدود التأويل/ قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 23.

إضافيا... فالعلامة هي توجيه للتأويل وآلية تقود إلى جميع الاستنتاجات التأويلية»[8] التي تقوم على ضرورة إشراك المتلقي في إعطاء نفس مُتَجَدّد لبناء الدلالة مع كل قراءة، إذ «لا يفهم إيكو الأثر على أنه مغلق جوهريا، وأنه لا بد أن تتم دراسة نظامه الداخلي بمقولات لسانية صارمة، مثلما يعتقد الشكلانيون والبنويون الفرنسيون المتقدِّمون في مجال النقد الأدبي، بل على العكس من ذلك تماما يفهمه على أنه انفتاح تأويلي قائم على دورة التواصل بين الكاتب والمتلقي»[9] الذي يستنفر أجهزة قرائية متعدّدة من أجل الوصول إلى خبايا المبدع التي سكت عنها.

يستلزم العنوان أجهزة قرائية مختلفة منها ما هو لساني ومنها ما هو غير لساني، فالقراءة «استكشاف تأويلي... تبحث في منطقة الدال عن الإمكانات المختلفة للتدليل»[10]. وهكذا يتحرك التأويل وفق مسارين؛ لساني تفرضه الهوية اللغوية للعنوان، بالبحث في الدلالات المعجمية والنحوية للعناصر اللسانية المشكلة له. وغير لساني ينفتح على أدوات تأويلية تتحدى صرامة التحليل اللغوي، وتُرسي قواعد «انفتاح تأويلي قائم على دورة التواصل بين الكاتب والمتلقي»[11]، الذي يستقبله العنوان مُوَشّى بموازيات أخرى تؤثر في حركة بَصَرِه وتُحدِّد مسار تأويله؛ فللون والرّسم والترتيب أثر قوي في إثارة الانتباه وتوجيه التلقي.

2.باب الشمس وسيرورات التأويل السيميائي:

1.2.بنية العنوان/التجلي اللساني:

قد يكون العنوان آخرَ مُنتَج لساني يقوم به المبدع ومن طينته يبدأ تشكيل اللّبنات الأولى لبناء الدلالة لدى المتلقي، يبدأ من تقصي ألفاظه معجميا وكيفية استثمار المبدع للطاقات النحوية للغة في هذا البناء.

العنوان بنية لسانية مقتصدة تستقبل المتلقي وتستأثر بانتباهه –مستغلة صفاء فضاء الغلاف من العناصر اللسانية النصية- فتراوغه وتناوئه بانزياحها عن التقرير إلى

---

[8]- أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد السمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2005، ص 68-69.

[9]- وحيد بن بوعزيز، حدود التأويل/ قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي، ص 23-24.

[10]- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية/ التشكيل ومسالك التأويل، ص 22.

[11]- المرجع السابق، ص 24.

الإيحاء، فهي «دسٌّ وإخفاء وكتمان لمحتوى»[12]، وهذا يغريه بضرورة كشف ما تحجب، فيورطه في قراءة النص.

يحقّق العنوان وظيفته التداولية عبر استثمار المبدع لأقصى طاقات اللغة. لذلك وجب على «المتلقي الدارس الذي يمتلك أجهزة قرائية عالمة تستند إلى ذخيرته اللغوية والنحوية والاستدلالية والتناصية»[13] ألاّ يُغفل مقاربة لغة العنوان.

تطالعك الرّواية بعنوان مُنْبَنٍ على ثنائية لفظية لا تجمعهما علاقة معجمية (باب / شمس)؛ فكل منهما ينتمي إلى حَقل دلالي ناءٍ عن الآخر، والجمع بينهما هنا سيُدمِّر لا محالة «المعنى القاموسي ويؤسس على أنقاضه معاني عدة لا تتشابه، ولكن رابطا خفيا يربط بينها»[14].

قبل الغوص في دلالات ارتباط هتين البِنْيَتَيْن في هذا العنوان، سنفحص كل بنية لوحدها.

أ- باب:

اسم نكرة، والنكرة في عرف الصرفيّين هي الأصل[15]، وتعرّف على أنها «اسم شائع في أفراد جنسه لا يختص به واحد دون غيره»[16]، وهذا يُعطي النّكِرَة صفة العموم وعدم التعيين، وانفتاحها على إمكانات تدليلية رحبة، تفسح مجال قراءة لفظ "باب". فهو من مشغولات البشر، وينتمي إلى الفن المعماري، وهو جزء لا يتجزأ من كل المباني، وهو الحاجز الذي يفصل الفضاء الداخلي عن الفضاء الخارجي، وفتحه يمنح فرصة اكتشاف ما وراءه. وغلقه يحجب الرؤية، ويُثير إحساسًا بالغموض لدى المارّة.

وإذا انفتحنا قليلا على السياقات المعمارية التي ترافق الباب، وجدنا أنه يُحيل اجتماعيا على مباني ذات وظائف تصل حدّ التناقض أحيانا. فقد يغلق الباب مسجداً أو حانة، مستشفى أو مصنع سلاح... كما أنه يمكن أن يميّز طبقة فقيرة عن طبقة غنية...

---

[12]- المرجع نفسه، ص 12.

[13]- المرجع نفسه، ص 22.

[14]- شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، ص 26.

[15]- ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، مكتبة الآداب، القاهرة، دت، ص 17.

[16]- السيد أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية للغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 77.

إن لفظ "باب" من الوجهة السيميائية التأويلية ممثّل موضوعه هو الباب في وجوده المادي المتحقق، ومؤوّله هو الصورة الذهنية التي يخلقها قرع لفظ "باب" أذن المتلقي، ثم يستحيل هذا المؤول إلى ممثّل جديد بتفعيل عملية التأويل.

إذا اشتغل التأويل في مستوى الثنائية الأولى (المسجد/الحانة)؛ أي الموضوع الأوّل لممثّل "باب" جرّنا إلى مؤوّل ديني، فحواه الثواب والعقاب؛ فنحن نجد في القرآن حضورا متواترا للفظ "باب"، دالاً على هذه الثنائية الضدية؛ فقد ورد هذا الممثّل معبّرا عن باب الجنة في مثل قوله تعالى: ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ**﴾[17]، معبّرا عن جزاء المؤمنين على صالح أعمالهم والتزامهم بأوامر الله ونواهيه، في حين عبّر عن أبواب جهنّم في قوله تعالى: ﴿**فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾[18]. فالنار عقاب الزائغين عن سبيل الحق التي دعا إليها الله، وبلوغها لا يكون إلا بولوج أبوابها.

تبيّن الخطاطة التالية سيرورة التأويل السيميائي للفظ "باب":

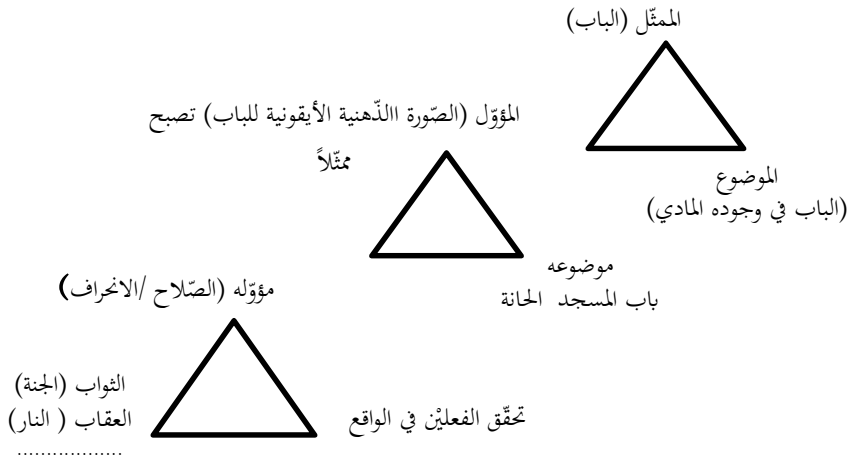

وهكذا تنتظم عملية التأويل من المنظور البورسي، ويُبْنى السيميوزيس في انفتاح لا متناهٍ، يتجدَّد مع كل قراءة تَستَجْلي زاوية لم تُسْتَجْلَ من قبل. إذ يستحيل المؤوّل في كل مرّة

[17]- سورة ص، الآية: 50.

[18]- سورة النحل، الآية: 29.

ممثّلاً متجدِّداً، يُبْعَث من رحم مؤوّله، عبر دخوله بمبرِّر ما في سياق جديد، تمليه ثقافة المتلقي، وقدرته على مناوأة إكراه التعيين، واستثمار طاقاته الذهنية واستحضار مخزونه المعرفي وخبراته الاجتماعية.

ينحو ممثّل "باب" نحو التعيين والتحديد الدلالي، وتتراجع التأويلات السابقة، عندما يَشْفع المبدع لفظ "باب" بلفظ "شمس"، وتأخذ السيرورة التأويلية منحى جديداً، يُحمِّل لفظ "باب" دلالات حافّة، تنضاف إلى دلالته المركزية، تجعله ينأى عن مجرّد التّدليل على المحمول المادّي –جزء المبنى ومدخله-.

ب- الشمس:

و"الشمس" ممثّل لساني، موضوعه كوكب ذو دور محوري في إقامة توازن الحياة على الأرض، ومؤوله صورة ذهنية أيقونية ذات شكل دائري بلون أصفر ساطع يميل إلى الحمرة، يحمل على الإحساس بالحرارة والضوء، وهي الوظيفة المركزية لهذا المؤوّل.

وتحملت "الشمس" بدورها محمولات دينية في الثقافات الإنسانية القديمة، بل إن الإنسان أبْلَغها مبْلَغ التأليه، فعبدها ممارسًا بعض الطقوس الدينية حيالها.

إن ربط مؤوّل "الشمس" بمؤوّل "باب" في هذا العنوان، عبر فاعلية التعليق النحوي بالإضافة [الشمس مضاف إليه مجرور لـ باب]، يزيح كثيرا من الاحتمالات التأويلية التي يفرضها انعزال كل من الدّالَيْن عن بعضهما، ويفتح أمام المتلقي قناة جديدة للتأويل، لأن الممثّل أصبح هنا مركّبًا من دالّين لسانيين (باب والشمس) يحيلان على موضوعين مختلفين؛ ويطمح الباث في هذا السياق إلى بناء مؤوّل جديد، سيقف عند نقطة التقائهما الدلالية. وتستحيل علامة العنوان مجالا تأويليا خصبا، لأن المؤوّل غامض مفتوح لا يجيب عن سؤال وإنما يحفز على طرح عدد من الأسئلة. مما يتيح لكل قارئ إمكان بث تأويلات نابعة من اهتماماته وثقافته وخبرته... وخطاطة هذه العلامة هي:

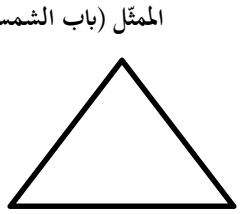

يؤدي العنوان الوظيفة التناصية عبر تحاوره مع النصوص والعناوين السابقة له، واستحضاره لها شكلا ومضمونا. «فالعناوين عبارة عن علامة سيميوطيقية يقوم بوظيفة الاحتواء لمدلول النص، كما يؤدي وظيفة تناصية إذا كان العنوان يحيل على نص خارجي»[19].

يحقق عنوان "باب "الشمس" تناصا مع عنوان الرواية السابقة للمؤلف هي "أبواب المدينة" انطلاقا من المكون المكاني للعنوان "باب" لكن مع اختلاف لساني واضح، فـ"أبواب" جاء جمعا مضافا إلى كلمة "مدينة"، وهو مكون مكاني آخر مما يؤدي إلى تحديد المعنى في حيز معين، متحقّق على الصعيد الواقعي، فكل مدينة أبواب تولج منها، أما "باب الشمس" فيأخذ من العنوان السابق لفظ "الباب" مفردا ويعلقه بلفظ "الشمس" الذي لم نعهد له بابا في الواقع. فتتسع المساحة الدلالية بينم الدال والمدلول ويفتح المجال للتأويل السيميائي اللامتناهي.

كما يعيد عنوان "باب الشمس" إلى الذاكرة عنوان رواية لـ"غسان كنفاني" هي "رجال في الشمس"، تؤرخ للنكبة الفلسطينية وظروف الاحتلال، مما يجعل المتلقي –وهو

[19]- جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، ص 98.

يقرأ- "باب الشمس" ينتقل بذهنه إلى "فلسطين" وما يعانيه شعبها في الداخل والخارج، ويحاول إيجاد علاقة دلالية مبررة بين العنوانين.

بُني عنوان رواية "باب الشمس" على الحذف النحوي، فتشكل من اسم مرفوع مضاف، والحذف التركيبي هنا «يعدد المعنى ويعطيه فرصا عدة للتأويل»[20] انطلاقا من إثارة المتلقي، والظفر بتردده بين إمساك الدلالة وإفلاتها، فمحور العنوان اسم "باب" مرفوع مشفوع بمضاف إليه يضيء جانبا منه، ويحدد ذهن القارئ في مسار تأويلي معين، فيخلق لديه إحساسا بالتأرجح بين التصريح والتلميح؛ فالباب مكون مكاني يأخذ معنى الانفتاح والانغلاق في الآن نفسه لتحمله وظيفتيْ الفتح والغلق، فـ"باب الشمس" يمكن أن يأخذ معنى "الباب الذي تدخل منه الشمس"، ويمكن أن يأخذ معنى "الباب الذي يسد أشعتها" فينفلت المكون المكاني هنا من التحديد والتعيين.

جر الحذف التركيبي الحاصل في العنوان حذفا مضمونيا، «وخلق معنى محيِّرًا وعصيا على القبض»[21] إلاّ إذا شُغِلت آلة التأويل من جديد بالبحث عن علامات تدليلية أخرى تجاور العنوان وتدعمه في سعي حثيث إلى إنتاج المعنى.

2.2.سيميائية الغلاف/ التجلي البصري:

"باب الشمس"، الباب ما زال مغلقا على فصول الرّواية، لكن ربما تجود شقوقه ببعض الوميض، إذا حاول المتلقي تأويل العنوان من خلال دعمه بعناصر الغلاف[22]، التي يمكن أن تشيَ بشيء مما تستّر في المتن عبر استنطاق المرئي بكشف اللامرئي.

إن قراءة أيقونات الغلاف تقتضي ربطها بالعنوان، وأبرزها لعين المشاهد قرص أصفر يميل إلى الحمرة، وهو الأقرب مكانا إلى العنوان. وإذا تأملنا القرص سريعا وجدنا أنه يعلو مجموعة أيقونات أخرى، ارتباطها واضح به، فهي صُوَر لأشخاص يتموضع فوقهم – القرص- وكأنه الشمس، التي تضيء دروبهم وتهب الحياة لأجسادهم.

---

[20]- شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، ص 26.

[21]- المرجع نفسه، ص 25.

[22]- اعتمدنا هنا على غلاف طبعة دار الآداب، الطبعة الرابعة، 2005.

تتميز أيقونات الأشخاص بأنها كخربشات الأطفال إذا رسموا، غائبة التقاسيم، فتفاصيل الوجوه غير موجودة، وهذا يلغي الوظيفة التعبيرية للوجه ويفسح المجال للأجساد كي تُعبِّر، فتنكيرها يجعلها صالحة للتدليل على كل البشر.

إذا صنّفنا أيقونات الأشخاص وَجدناها ثلاثة أصناف:

1- مجموعة تحمل عُدّة الرّحيل وتمضي صوب القرص وعكسه، وهنا يشتغل عنصر المشابهة في هذا الممثّل، الذي موضوعه أشخاص؛ نساء ورجال يرحلون، ومؤوّله الخضوع لإكراهات معينة تُسلَّط على هذه الشخصيات هي الهجرة إلى كل مكان وعدم البقاء هنا، في سعي إلى البحث عن غد أفضل هنا أو هناك...

2- يقضي عنصر المشابهة أن المجموعة الثانية أطفال، تعبّر حركات أجسادهم الصغيرة على اللعب وعدم الاكتراث، وكأنهم يقولون نحن هنا وما زلنا أحياء وكفى، ولا يجب أن نعير اهتماما إلى قسوة الحياة، يجب أن نستمتع تحت كل الظروف. يناوئ هذا الممثّل الممثّلَ السابق ويعارضه، ففي حين عبرت المجموعة الأولى –في تقديرنا- على الكبت والاستجابة إلى الإكراهات، عبّرت المجموعة الثانية على وجوب التحرّر منها.

3- يمثل الصنف الثالث أيقونة شخصية واحدة، يشي عنصر المشابهة أنه رجل منطو جالس على ركبتيه مطأطأ الرأس قابض على ذراعيه فيما يشبه الإمساك بالألم لإخماده.

شغلت أيقونات الشخوص معظم صفحة الغلاف، فكانت كقطع فسيفساء مستقلة ومتآلفة في الآن نفسه، ترسم معالم لوحة جميلة، تريد أن تبوح لمتلقيها بشيء لم يُفصح عنه العنوان، فتقرّب له المعنى الذي ستره.

ما زال العنوان متمنِّعاً، يأبى أن يكشف سِرّه، أمام متلقيه. إنه يحتفظ بألقه وبريق ما تخفى بين طياته، فرغم هذا الفحص، والحركة التأويلية الدؤوبة من أجل فك الطلسم، إلاّ أن القارئ يحس بعدم الظفر بالمعنى المقصود من هذا العنوان "باب الشمس" الذي أخفى الخبر وحَيّر.

ليس في وسعنا في هذا المستوى إلا معاودة الكرة والمحاولة من جديد، ببث نفس جديد في التأويل السيميائي، وإعادة تأمّل أبرز عنصر في أيقونات الغلاف: القرص وهو أقربها مكانا إلى العنوان على سطح الغلاف.

يمارس العنوان سلطته على المتلقي ويجعله يقرأ –مكرهًا- العناصر المجاورة له، في ضوئه. فقد أثبت اختبار قمنا به على ثلاثين (30) متلقيا؛ ينتمون إلى فئات مختلفة (أساتذة، وطلبة، وموظفون)، وزعنا عليهم صورة الغلاف، وطلبنا منهم تحديد دلالة القرص في أعلى الصورة، فاتضح أن عدد المجيبين بأنه "شمس" هو واحد وعشرون (21) فردا أي ما نسبته (70%)، وبأنه "قمر" ثلاثة (3) أفراد أي ما نسبته (10%)، وبأنه "برتقالة" ستة (6) أفراد أي ما نسبته (20%). فارتفاع نسبة المؤولين للقرص على أنه "شمس" دليل على نجاح منتج الغلاف في الإيهام بوجود علاقة تقاطع دلالي بين العنوان وبين الأيقونات المجاورة له، فكانت للغة سلطتها القوية في توجيه القراءة، وجعلها تنسجم مع العنوان الذي توازيه.

غير أن إعادة تعريض المتلقين أنفسهم للعلامة نفسها، بعد قترة زمنية لا تتعدّى الثلاثين دقيقة، كشف أن الجميع تراجع عن أن يكون القرص ممثّلا للشمس، واتفق الجميع على أنه ممثّل برتقالة، وذلك بعد الارتكاز على الفاعلية البصرية وتحرير أيقونة القرص من سلطة العنوان اللسانية، بإعلاء قيمة عناصر المشابهة في عملية القراءة. وهنا سيأخذ التأويل منحى جديداً يغني المجال الدّلالي.

تنتصر عناصر المشابهة للتأويل الأخير للقرص، فنظرة فاحصة له تجعل الناظر ينتبه إلى أنه جسم مضاء وليس مضيئا من خلال التركيز على خطوط الضوء والظل على سطحه، إذ ينعكس الضوء على جزء منه، فيتراءى ساطعًا فاتح اللّون، في حين تَغَلَّف جُزْؤُه الآخر بالقتامة والميل إلى الغموض، كما أن سطح القرص عبارة عن نقاط ونتوءات يوشحها العمق والعتمة والضوء، وهي عناصر تستفز الذاكرة البصرية للمتلقي، فتشير محددات المشابهة في هذا الجسم إلى البرتقالة مباشرة. ويتعمق هذا التأويل بالنظر إلى الجزء الجانبي من الغلاف حيث يُظهِر الشكل البرتقالي وجه نقطة معلاق البرتقالة، وهنا سيتوقف التأويل للحظة عبر المؤول النهائي. «فالسيرورة التأويلية تقلص من إمكاناتها عندما تحدد اختبارا يعتبر مسارًا تأويليا يقود إلى شكل تستقر عليه الدلالة.»[23]. فالجسم البرتقالي لا يحتمل معنى آخر ولا يحتاج هنا سوى تبرير سبب حضور هذا الشكل في هذا الغلاف، وهي فجوة لا تُسد إلا لقراءة الرواية.

[23]- سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل: مدخل لسيميائيات شارل سندرس بورس، المركز الثقافي العرب، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص 102.

وهكذا بدل أن يكوّن العنوان مع أيقونات الغلاف محدّدات، تتعاضد لتبنّي دلالة، تقترب بالمتلقي إلى ما سيقوله النص، ألَّفَتْ هنا بين متفرّقات لا جامع بينها؛ (باب، شمس، برتقالة، أشخاص) في مشهد واحد، فوضعت المتلقي في حَيرة وتردّد. وهذا من شأنه أن يعزّز الوظيفة الإغرائية التي يمارسها العنوان على المتلقي، فتدفعه نحو الأمام علّ فصول الرّواية تجود بما يشفي فضوله، ويفك ما انعقد على سَطح الغلاف.

2.3. امتداد العنوان في المتن الحكائي/ عودة إلى سيميائية التجلي اللساني:

يحفِّز العنوان المستقل عن النص ذهن القارئ على تنشيط الذاكرة باستحضار النصوص وعناوين النصوص السابقة عليه عبر تأويله للوظيفة التناصية، «فالعنوان قبل القراءة يُحيل على نصوص أخرى غير نصه المرتبط به، لكن القراءة تدفع إلى الربط بين العنوان والنص».[24]

يوازي العنوان النص ويتقاطع معه في الآن نفسه؛ لأنه بنية لسانية منفصلة عنه خطيا من جهة، وهو امتداد له من جهة أخرى، فهما شكلان لبنية دلالية واحدة مختزلة في العنوان، مفصلة في المتن. «فالعنوان بمثابة الرّأس للجسد، وفي الرّأس تختبئ أسرار الجسد»[25]، فالعنوان هو التخفي والنص هو التجلي.

لا تمنحك الرواية سرّ عنوانها، وإنما تعبث بك وتواصل ما بدأه العنوان، فتوهمك بأنها تفشي سرّ "باب الشمس" عندما تُنطِق "خليل" فيقول في الصفحة السادسة عشر: «أخبرتني عن تلك المغاور المحفورة في الصخور، أصحيح أنك كنت تلتقي بها هناك، أم أنك كذبت عليّ؟ قُلْتَ إن اسمها باب الشمس»[26]. ستفهم أن المحبوبة هي "باب الشمس" وستحاول أن تجد تأويلا لسر هذه التسمية، وسيستمرّ الرّاوي في سرد أحداثه غير آبه بك، ولا يعود إليك إلاّ في الصفحة الرابعة والعشرين، فيقول على لسان "يونس": «هذه عكا، هنا الصور، وإلى هنا يمتد السهل... هنا باب الشمس. نحن من عين الزيتون... أعلى قرية لكنهم

---

[24]- شعيب حليفي، النص الموازي في الرواية (استراتيجية العنوان)، مجلة الكرمل، العدد46، بيروت، أكتوبر 1992، ص 95.

[25]- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية/ التشكيل ومسالك التأويل، ص 91.

[26]- إلياس خوري، رواية "باب الشمس"، دار الآداب، بيروت، ط4، 2005، ص16.

دمّروها عام 1948، ... أما أنا فأسست قرية لا يعرف أحد مكانها، قرية في الصخور تدخلها الشمس وتنام فيها»[27].

"باب الشمس" إذن هي تلك المغارة التي تسكن عمق الجليل، وترسم صورة جديدة لحياة زوجيْن فارِيْن من قبضة الاحتلال، يتحيّنان فرصة اللّقاء الهاربة في حضن الجبل الشامخ الشاسع.

"باب الشمس" الآن مكوّن مكاني محدّد جُغْرافيا مفتوح دلاليا، ففضاؤه معادل موضوعي لمجموعة من المفاهيم:

1-باب الشمس← الأسرة: ففي هذا الفضاء تجتمع الأسرة، التي تفرقت بفعل الاحتلال الإسرائيلي لإحدى قرى الجليل (عين الزيتون)، وإلى هذا المكان يأوي "يونس" العائد من اللجوء إلى "نهيلة"، وهناك تستمرّ الحياة الزوجية والتناسل، ولهذا مؤولاته. وتتحوّل "باب الشمس" المغارة إلى رمز للعائلة تارة ورمز للاستمرار والبقاء عبر الإنجاب طورًا.

2-باب الشمس← الوطن: فـ"يونس" هارب غير مستقر في مكان، لاجئ في "لبنان"، مغامر لا تمنعه الحدود من العودة إلى الوطن، ووطن "يونس" بعد استحالة عودته إلى بيته –هو "باب الشمس"-، هي الاستقرار المؤقت والانعتاق من حياة الكر والفر ولو مدّة قصيرة.

3-باب الشمس← الالتزام والاستمرار: فـ "باب الشمس" ممثّل موضوعه المكان، ومؤوّله قضية شعب لا تنتهي بموت الآباء، وإنما تمتد في الأبناء والأحفاد، فـ "يونس" رغم نزوحه إلى "لبنان" بقي متمسِّكا ملتزما بالدّفاع عن القضية بقوة السّلاح، دون أن ينقطع عن إنجاب أبناء يخلفونه في حمل الأمانة بعد أن يزول هو، فالأبناء امتداد بيولوجي وثقافي للآباء.

يمكن أن نمثل السيرورة التأويلية لممثّل "باب الشمس" بالخطاطة الآتية:

[27]- المصدر نفسه، ص 24.

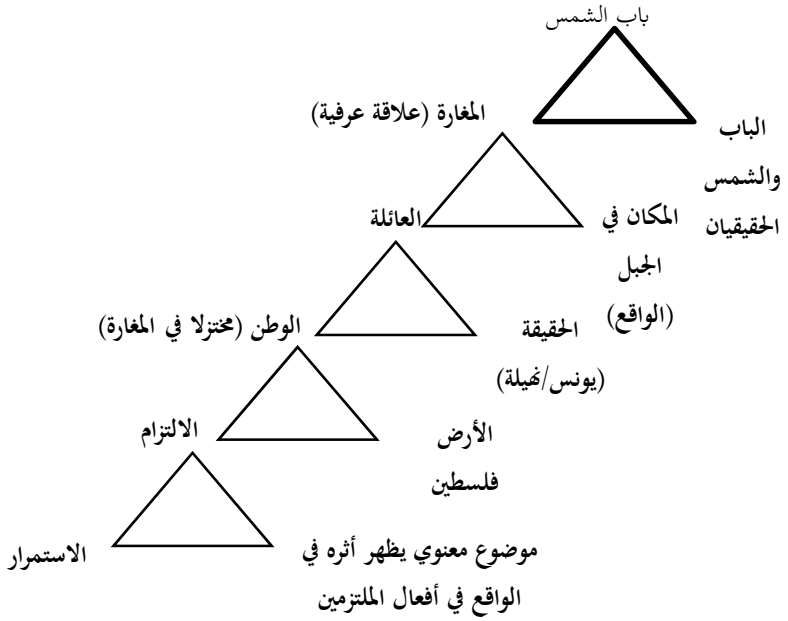

توضح هذه الخطاطة سيرورة التأويل السيميائي، الذي أخذ منحًى دلاليا محدّدًا، لعب المتن الحكائي دوراً محوريا في توجيهه بعد أن أفشى سِرَّ العنوان وسدّ ثغرة الخبر، فأوصَل قصد الكاتب إلى المتلقي ومَتَّن عُرى التواصل بينهما، عبر سلسلة من الترابطات الدلالية التي تتكئ على المعنى المعجمي وتنفتح على عدد لا حصر له من الإيحاءات التي تعمل القراءات المتعدّدة على إغنائها. فالعنوان علامة «تشتغل وفق آلية تمثيلية، تشتمل على أداة تقوم بالتمثيل لموضوع خارجي وفق ما يقتضيه الرّابط الإلزامي الذي يمكّننا استقبالا من التعرّف على كل الموضوعات المشابهة»[28]، فيباح للمتلقي استحضار الغائب وتتمة المحذوف باستثمار ما يَحُوزُه من طاقة لغوية وخِبرات ثقافية ذات علاقة بالموضوع الممثل في العنوان.

مارس العنوان "باب الشمس" لعبة التجلّي والإخفاء الدلالي تأسيسا على شكله اللساني تارة، وعلى حُضوره ضمن سياق أيقوني عزَّزَ قُدرتَه الإيهامية طورًا، فحقّق –عبر

[28]- سعيد بنكراد، السيميائيات بين السرد والخطاب والأيقونة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد10، ص 51.

المراوغة- وظيفته الإغرائية. مما أفرز تعدّدًا لسيرورات التأويل الطامحة إلى هتك الحجب دون المستور، محاولة سد بعض الثغرات التي قَصَد منتج هذه العلامة مناوأة متلَقِّيه بها.

شغل العنوان سيرورات دلالية سيميائية متنوعة، أخذت مناحي متعددةً بتعّدد زوايا قراءة هذه العتبة؛ ففي المستوى اللساني سافر بنا العنوان من المستوى المعجمي إلى المحمول الديني، ثم إلى المتعاليات النصية، فحاور عناوين سابقة كـ"أبواب المدينة" لإلياس خوري، و"رجال في الشمس" لغسان كنفاني، وجعلنا نحاول إعطاءه دلالة مبرَّرة للانطلاق من بينته اللسانية، لكنه راوغنا بأن ترك في نفسنا شيئا من الشك والريبة مما جعلنا نعاود النظر والتأمّل، بربط عتبة العنوان بموازيات أخرى، فاستنطقنا أيقونات الغلاف التي لم تدّخر جهدا في مناوأتنا، فجعلتنا نقدّم أكثر من قراءة لبعض الأيقونات، ولم يتوقف المد التأويلي المتعدد إلا بالعودة إلى صفحات المتن الذي أرسى معاني عتباته في مغارة "باب الشمس" و"برتقالة الوطن"، وشتات الشعب الفلسطيني. على أن هذا التوقف غير منتهٍ في الزمن وإنما يتوقف الإرساء الدلالي هنا في انتظار متلق جديد يقيم صروح سيرورات تدليلية أخرى، تنبع من معارفه وثقافته الاجتماعية.